أدلة إثبات وجود الله في الفلسفة الحديثة
(ديكارت نموذجا)

د. محمد بحر محمد حسن *

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلي بيان الطابع اللاهوتي المسيحي في الفكر الفلسفي والذي اعتمد على التوفيق بين العقل والنقل .كما بين عليه الطابع العملي على الفلسفة الحديثة وذلك تطبيقا على ديكارت في إثبات وجود الله. وقد قدم لنا ثلاثة أدلة على إثبات وجود الله وهي (الوجودي، الكوني، الغائي) وقد وجهت انتقادات كثيرة لهذه الأدلة. استخدمت هذه الدراسة المنهج التحليلي. وتوصلت إلى أن اللامتناهي والوجود المطلق الكمال هما مجرد فكرتين تعبران عن السلب لا عن الإيجاب، أي أنهما تشيران إلى سلب الحدود التي يتخطاها عقلنا في معرفته، أو بمعنى تلك الحدود التي تقف عندها قدرة إدراكنا الإنسانية وتعجز عن تخطيها لقصور عقلنا. أي أننا لا ندرك معنى اللامتناهي مثلاً إلا على أنه سلب لحدود المتناهي، وأنه تصور فارغ من أي محتوى، ما دمنا لا نستطيع أن نتجاوز معرفتنا الإنسانية وحدودها، وكذلك الحال فيما يتعلق بفكرة الكمال المطلق.

Abstract

* جامعه النيلين – كلية الآداب.

This paper aims to demonstrate the impact of Christian theology in the practical nature of the modern European philosophical thought which rely on conciliating between the inspired and the empirical. To prove the supreme existence of God, Descartes provides three evidences: existential, universal and teleological. It deserves noting that this point of view is encountered by a great deal of criticism. The analytical approach has been used in this study.

It's obvious from this study that the Non-finite and the existence are just two ideas which reflect the negative not positive, they indicate the negative of boundaries that our mind doesn't exceed in its knowledge. In other words, these boundaries on which our humanitarian capability awareness can't go beyond for the limitation of our mind. So, we can't understand the non-finite for instance, as it is the negative for the finite limits and it's empty proposal from any content as long as we can't go beyond our humanity knowledge and its boundaries, as well as the idea of absolute perfection.

المقدمة:

بداهة نستطيع القول بأن الفكر الفلسفي يبدو لنا في سلسلة واحدة مترابطة الحلقات، إلا أننا نستطيع أن نلمح في ثنايا هذا التطور الملامح الخاصة بكل مرحلة وما تمتاز به عن المراحل التاريخية الأخرى، فثمة خصائص للفكر الفلسفي الحديث يتميز بها على التراث الفلسفي للعصر الوسيط.

فنجد أن الفكر خلال القرون الوسطى قد استمر تتحكم فيه المثل العليا ولكن بطريقة معدلة اتخذت طابعاً جديداً يسمح بتدخل الطابع اللاهوتي المسيحي في الفكر الفلسفي، والطابع الديني الإسلامي في الفكر الفلسفي عند المسلمين لذا نجد أن طابع هذه الفلسفة الدينية في العصر الوسيط هو طابع التوفيق بين النقل والعقل أي بين الوحي والعقل وقد كانت عقائد الدين في القرون الوسطى موضوع تسليم يقيني عند المفكر المسيحي أو المسلم وقد انحصر دور الفلسفة في الغالب في شرح مضامين هذه العقائد وإقامة الحجج والبراهين على صحتها، أما الفلسفة الحديثة فقد غلب عليها الطابع العملي، والتزم المحدثون من الفلاسفة بنزعة تجريبية في تفكيرهم واتجاهاتهم، فلم يعد في نظرهم ثمة مجال لتحكم القيم في الواقع ليكون ذلك دليلاً على صدق هذا الواقع فأصبحت خير معبر عن التقدم العلمي وحافزاً على الانطلاق في ساير ميادين البحث العلمي. فالفلسفة الحديثة إذاً هي ذات طابع عملي وأيضاًُ تتميز بالطابع الفردي لأن الفيلسوف المحدث عمل على مواجهة الواقع بنفسه واعتمد على فروضه وتجاربه وليس خاضع لسلطة الآخرين أو فكر الجماعة.

تهدف هذه الدراسة إلي بيان الطابع اللاهوتي المسيحي في الفكر الفلسفي الذي اعتمد على التوفيق بين العقل والنقل.

نرى أن الأدلة التي يستند إليها كل مذهب من المذاهب الإلهية تستمد بطبيعة الحال من المذهب الفلسفي العام الذي يدين به الفيلسوف: فأدلة أفلاطون مثلاً غير أدلة أرسطو Aristotle وأدلة ديكارتDescartes غير أدلة Leibniz أو كانتCant أو Johan Herbart.

الأدلة اعتمدت عليها المذاهب الفلسفية في التدليل على وجود الله تعالى:

وقد جرت العادة أن يجمع المؤلفون في باب واحد أشهر الأدلة على وجود الله تعالى التي وضعها الفلاسفة المختلفون في الدفاع عن مذهب التأليه تحت عنوان واحد هو (الأدلة على وجود الله) وهذه الأدلة أشهرها:

الدليل الوجودي- الدليل الكوني - الدليل الغائي أو الدليل الإلهي الطبيعي.

النقطة الأساسية التي اشتركت فيها هذه الصورة هي استنتاج وجود شيء (وهو هنا الله) من وجود فكرة عنه، ففي إحدى صور هذا الدليل مثلاً يقال أن فكرتنا عن الله أن من صفاته الكمال المطلق، وأن من كان له الكمال المطلق يجب أن يكون موجوداً، لأن الكمال المطلق يجب أن يكون موجوداً، لأن الكمال المطلق يتنافى مع العدم، فالوجود إذاً صفة لازمة لأي شيء يفترض كماله المطلق[1]. ويمكن تلخيص هذا الدليل في الصور القياسية التالية: إذا كان الله غير موجود كان غير كامل.. وإذا كان الله غير كامل لم يكن إلهاً وإذا كان الله غير موجود لم يكن إلهاً..

ولكن الله يجب أن يكون إلهاً بكل معاني الإلوهية.. إذاً يجب أن يكون الله موجوداً.

اتفق كل من ديكارتDene Descartes و Leibniz تماماً في هذه النقطة، نعم يقول Leibniz معارضاً لديكارتDescartes أن أول خطوة يجب البدء بها هي البرهنة على أن فكرة الموجود الذي هو أكمل الموجودات وأكثرها حقيقة فكرة خالية عن كل تناقض، ولكن هذا لا يمس جوهر الدليل عند ديكارت Descarte، لأن الفكرة إذا خلت من كل تناقض أي إذا كانت فكرة ممكنة – لزم وجود التي تمثل لزوماً ضرورياً وهذا أيضاً يتفق فيه الفيلسوفان.

وقد اعترض الفلاسفة السابقون لكانت Cant من رجال القرن الثامن عشر (أمثال كروسيوس SuCrusi في ألمانيا وهيوم في إنجلترا) اعتراضات قوية صحيحة على الدليل الوجودي، ولم يعمل كنت – الذي لقب من أجل نقده لهذا الدليل ولغيره من الأدلة على وجود الله، بالفيلسوف الهادم – سوى تنسيق اعتراضات السابقين، ووضعها في صور عامة تستند إلى أسس من نظرية المعرفة (الابستمولوجيا) ويتلخص رأيه في أن الوجود ليس صفة منضمة إلى صفات أخرى يتألف منها مفهوم الشيء، بل هو محمول فحمله على الأشياء التي تقع عليها تجاربنا، وليس في حملنا للوجود على شيء إضافة لأية صفة جديدة على فكرتنا عن ذلك الشيء.

ونلاحظ من خلال حديث ديكارت Descarte بالنسبة للدليل الوجودي حيث يقول أن تفكيرنا لا ينتج إلا ما هو مناسباً لنا وله. ولكن

تفكيرنا دائماً محدود وناقص فإذا استطعنا أن نكوِّن فكرة لموجود لا نهائي كامل الوجود، فإن هذه الفكرة من إنتاج عقولنا نحن، بل لابد أن يكون مصدرها أشياء خارجية تمثلها فكرتنا، وبهذه الطريقة يصبح وجود الله مؤيداً لصحة فكرتنا عنه.

الدليل الكوني: أما الدليل الكوني على وجود الله فالفكرة الأساسية فيه أن هنالك علة أولى أو المحرك الأول وخلاصته أننا عندما نبحث عن علل الموجودات يؤدي بنا البحث إلى كشف علل بعيدة، ثم علل أبعد وأبعد لما يحدث في مجرى العالم من حوادث ثم يقف علمنا بالأشياء في نهاية الأمر عندما نواجه شيئاً لا يمكننا أن نجد علة لوجوده ولكن الأشياء في نهاية الأمر عندما نواجه شيئاً لا يمكننا أن نجد علة لوجوده ولكن الأشياء إذا لم يمكن تحليل وجودها بأشياء أخرى، يقال فيها عادة وجدت نتيجة الاتفاق والمصادقة ولكن طالما لم توجد هذه الأشياء بتلك الصورة وجب أن نفترض وجود خالق العالم أو علة قائمة بذاتها[٢].

وخلاصته أن الموجودات لابد لها من موجد، لأننا نرى كل موجود منها يتوقف على غيره ونرى غيره هذا يتوقف على موجود آخر دون أن نعرف ضرورة توجب وجوده لذاته، فالموجودات غير واجبة لذاتها فلابد لها حتى سبب يوجبها ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه[٣].

الدليل الغائي: ما هو الدليل القائم على فكرة أن للعالم نظام ركب على نحو معين ليحقق غاية ماء، ويستنتج وجود صانع مدبر لهذا النظام ومحقق فيه الغاية منه. ولما كانت الغاية لا تدرك إلا على إنها فكرة في عقل من العقول، قال أصحاب هذا الدليل أن الله يجب أن يكون عقلاً،

وقد ظهر هذا الدليل في الفلسفة القديمة واعتبر في نظر (كانتCant) أوضح الأدلة كلها على وجود الله وأجدرها بالنظر، كما اتخذه (هربارت Herbart) أيضاً أساساً بني عليه جدله في فلسفته الإلهية.

أدلة وجود الله عند رينيه ديكارت
René Descartes
(١٥٩٦ – ١٦٥٠)

حياته ومصنفاته: ولد بلاهي من أعمال مقاطعة تورين فرنسا١٥٩٦ [٤]، ولما بلغ الثامنة أدخل مدرسة (لافليش) للآباء اليسوعيين، وكانت من أشهر المدارس في أوربا، فمكث بها ثماني سنين حتى أتم برنامج الدراسة فيها، وكانت الفلسفة تحتل في هذا البرنامج مكاناً فسيحاً، فتمتد على الثلاث سنوات الأخيرة، وكان تدريسها عبارة عن شرح كتب أرسطوAristotle موزعة إلى مجموعات ثلاث، لكل سنة مجموعة كتب: كتب المنطق، فكتب الطبيعيات (وإلى جانبها الرياضيات)، فكتاب النفس وكتاب ما بعد الطبيعة، وأعجب ديكارتDescartes بوضوح الرياضيات ودقتها وإحكام براهينها (أما الفلسفة فتركت في نفسه أثراً سيئاً لكثرة ما فيها من أخذ ورد، واعتقد أن اختلاف الفلاسفة مدعاة للشك في الفلسفة وفي باقي العلوم التي إنما تقوم على الفلسفة وتستمد منها مبادئها) هذا ما نقرأ في (المقال في المنهج) ولعل ديكارتDescartes يضيف إلى عهد الصبا حكماً نضج عنده فيما بعد، على أن من المحقق إنه تعلق بالرياضيات وانصرف عن الفلسفة إلى زمن ولم يكن يخصص لها سوى (ساعات في العام)[٥].

غادر ديكارت Descartes مدرسة لافليش وهو في السادسة والعشرين من عمره وبعد أربع سنوات من مغادرته لهذه المدرسة تقدم لامتحان إجازة الحقوق، ثم ما لبث أن استهوته الحياة الاجتماعية في

باريس بصخبها وضجيجها فانغمس في تيارها بحذر، وسرعان ما أحس بأن هذا اللون من الحياة لا يروق لمثقف مثله، ولهذا فقد أثر التطوع في الجيوش الأجنبية خارج فرنسا لكي يدرس أحوال البلاد الأخرى ويشبع نهمه إلى العلم والثقافة. فالتحق بجيش موريس دي ناسو بهولندا، وحدث أثناء إقامته في هذه البلاد في جيش هذا الأمير أن التقى بطبيب يدعى إيزاك بمكان، فتباحث معه ديكارت Descarte في علوم الطبيعة والرياضيات، ولقى لديه إيمان بهما وشغفاً بمتابعة الأبحاث فيهما فتعاونا في بعض الأبحاث الطبيعية، وظل على هذا الحال إلى أن ترك جيش الأمير موريس سنة ١٦١٩ والتحق بخدمة جيوش الأمراء الألمان، وفي هذه السنة – وفي اليوم العاشر من نوفمبر بالذات – وكان الطقس شديد البرودة مما دعا ديكارتDescarte إلى الاعتكاف في حجرته الدافئة، وإذا به يرى حلماً عجيباً، ولعله أدرك في حلمه هذا منهجه الجديد الذي سيعرضه في (المقال عن المنهج)[٦].

وعدل ديكارتDescarte عن المهنة العسكرية، وراح يطوف في أنحاء أوربا تسع سنين حتى هبط باريس سنة ١٦٢٨، تسع سنين لم ينقطع في أثناءها عن معالجة المسائل الطبيعية الرياضية، أي بتجريدها من المبادئ الفلسفية التي كانت لاصقة بها عند أرسطوAristotle والمدرسين، وردها إلى مسائل رياضية، وإلى هذا الدور يرجع استكشافه للهندسة التحليلية، أي تطبيق الجبر، على الهندسة أجل كان نفر من العلماء القدماء والمعاصرين قد سبقوه في هذا المضمار فعرضوا أمثلة على تطبيق هذا المنهج، بيد أن هذه الأمثلة كانت عندهم مجرد طرائق عملية لا

يجمعها تصور كلي، فرأى ديكارتDescarte (السبب) الذي من أجله لا تصلح هذه الطرائق الجزئية وهذا السبب أدى به إلى منهج كلي يطبق على جميع الحالات بغض النظر عن طبائعها الخاصة، إذ أنه نظر إلى العلم بعين الفيلسوف، فبلغ إلى كلياته، ووسع مدى تطبيقه، ولعل الهندسة التحليلية ذلك العلم العجيب، كانت الهندسة مقصورة على النظر في الأشكال، وكان الجبر كثير الصيغ معقدها، ولم يكن بين العلمين اتصال، فبدأ لديكارتDescarte أن الهندسة والحساب يقومان في الترتيب والقياس وأن المطلوب من الجبر التعبير عن أعم قوانين الترتيب والقياس، وأنه من الممكن وضع علم تكون صيغته أبسط من صيغ الحساب وأكثر تجديداً من أشكال الهندسة فتطبق على الأعداد والأشكال جميعاً، أي على كل ما هو مرتب وقابل للقياس، فرمز بأحرف الخطوط الشكل الهندسي وعلاقات الخطوط، مثل الشكل بمعادلة جبرية تعبر عن خصائصه الأساسية، حتى إذا ما وضعت هذه المعادلة، كان استخراج نتائجها بالجبر كافياً لاستكشاف جميع الخصائص. وإلى هذا الدور أيضاً يرجع كتابه (قواعد تدبير العقل) وهو بمثابة منطق جديد مستمد من مناهج الرياضيين، ولكن ديكارتDescarte لم يتمه، فبقي مطوياً إلى أن طبع بعد وفاته بنصف قرن (١٧٠١)[٧].

انقضت التسع سنين ولم يشرع ديكارتDescarte في البحث عن أسس فلسفية أو كاد من الفلسفة الدارجة كما يقول على أنه كان قد حصل على الآراء الجزئية قدراً يذكر، حتى جرأ على عرضها في نوفمبر ١٦٢٨ في مجلس خاص كان أهم أعضائه الكاردينال دي بريل، عرض هذه

الآراء على أنها تؤلف فلسفة مسيحية منافية لفلسفة أرسطو Aristotle (والقديس توما الأكويني بالطبع)، فأعجب به الكاردينال وكان أوغسطينياً وشجعه تشجيعاً حاراً على مواصلة بحثه وإتمامه فلسفته، خدمة للدين ومن هجمات الزنادقة، وهذه واقعة لها خطرها، ندرك منها أن العلم الطبيعي الرياضي أو الآلي صدفة عن أرسطو Aristotle إلى أفلاطون، وأنه تأثر (بالوساطة) بالأفلاطونيين المسيحيين، فلن نعجب إذا وجدنا عنده شيئاً من القديس أوغسطين وشيئاً من القديس أنسلم وشيئاً من دونس سكوت، وشيئاً من أوكام وغيره من الأسميين(٨).

لم يلبث ديكارت Descarte أن توجه بعد هذا إلى هولندا حيث استقر بها عشرين عاماً، وكانت هذه البلاد في ذلك الوقت من أصلح البلاد الأوربية التي يستطيع فيها المفكر الحر أن يعمل معتكفاً في هدوء دون مضايقة من الزائرين أو اضطهاد محاكم التفتيش(٩).

وفي هولندا ذاعت شهرته كأعظم فيلسوف ورياضي أنتجه العصر مما دعا الملكة لرستين ملكة السويد إلى استدعائه عام ١٦٤٩ لكي يعلمها الفلسفة، ولما كان من عاداتها أن تستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً لتلقي الدروس، وكان الجو بارداً في استكهولم لذلك أصيب ديكارت Descarte بالتهاب رئوي وتوفي في ١١ فبراير سنة ١٦٥٠(١٠).

مؤلفاته:

١. قواعد لإرشاد العقل سنة ١٦٣٠.
٢. مقال عن المنهج سنة ١٦٣٧.
٣. التأملات الفلسفية (في جزئين) سنة ١٦٤١.
٤. مبادئ الفلسفة سنة ١٦٤٤.
٥. رسالة في انفعالات النفس سنة ١٦٥٠.

أدلة إثبات وجود الله:

نجد أن ديكارتDescarte يتطرق إلى إثبات وجود الله في نطاق الكوجيتو فنراه يحاول أن يثبت بالدليل وجود جوهر روحي سام هو على وجود الجوهريين النفسي والمادي وله على ذلك ثلاثة أدلة(١١):

الدليل الوجودي:

ويقول فيه: (إني أستطيع أن أدرك موجوداً له الكمال المطلق وهو جوهر لا متناهي أزلي ثابت منفصل عني، وكله معرفة وكله قدرة وهو الذي خلقني وخلق الجميع وخلق جميع الموجودات الأخرى، إذا كان ثمة موجودات أخرى، ولما كنت موجوداً متناهياً وناقصاً، لهذا فليس في قدرتي أن أتصور بنفسي فكرة موجود متناه ذي كمال مطلق، لأني أدرك في جلاء ووضوح أن أي معلول لابد له من علة كفء له وتكفي لإحداثه، ومن حيث أني متناه الوجود فلن أستطيع إذن أن أتخيل بنفسي وجود موجود لا متناه، لهذا فإن موجوداً هذا شأنه لابد من أن يكون موجوداً بالفعل وإلا لم أكن أستطيع أن أكوِّن فكرة عنه.

ويمكن أن نلخص هذا الدليل على هذا النحو (أن لدينا فكرة موجود لا متناهي له أسمى الكمالات، وهذا الموجود هو سبب وجودنا وعلة وجود جميع الأشياء ولما كان كل منا موجوداً متناهياً ناقصاً، فلا يمكن أن نتخيل أو نؤلف من تلقاء أنفسنا أي فكرة عن موجود كامل لا متناهي، وما دامت هذه الفكرة موجودة لدينا فلابد وأنها صادرة عن موجود لا متناه كامل له وجوده الفعلي المستغل عن فكرتنا عنه وإذن فالله موجود(١٢).

وقد قبل كانتCant في مستوى واحد إدعاء ديكارتDescarte أن فكرة الوجود تنتمي من ناحية تحليلية إلى مفهوم الله، تماماً كفكرة الزوايا

الثلاث التي تنتمي تحليلياً لمفهوم شكل المسطح ذي الأضلاع الثلاثة. وفي كل حالة، فإن الإثبات مربوط بالضرورة بالموضوع. ولكن كان يرد: أنه لا يتبع من ذلك أن الموضوع، بإثباته، هو موجود بالفعل، من هو حقيقة من ناحية تحليلية، هو أنه إذا وجد مثلث فلابد أن تكون له ثلاثة زوايا وإذا وجد كائن كامل بدرجة لا نهاية لها، فلابد أن يكون له وجود. وكما يقول (أي كانت نفسه)، أن نجد أو نضع مثلثاً، ثم نرفض زواياه الثلاث، هو تناقض مع الذات في رفض المثلث مع زواياه الثلاث، ونفس الشيء هو الحقيقة عن مفهوم الكائن الضروري بشكل مطلق(١٣).

وفي مستوى أعمق من ذلك، على أي حال، يرفض "كانتCant" الافتراض الأساسي الذي يحيط ببرهان ديكارت Descarte– أي الافتراض أن الوجود، مثل المثلثية، هو إثبات يمكن أن يكون له أحياناً، أو لا يكون له موضوع(١٤).

والذي قد يكون في بعض الحالات مرتبط تحليلياً بهذا الموضوع. وهذا يشير إلى (كما وضح ذلك الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم David) (Hume في إطار مغاير) أن فكرة الوجود لا تضيف أي شيء لمفهوم شيء معين أو نوع من الأشياء. ذلك لأن مبلغ المائة دولار المتخيلة في الخيال، مثلاً لا تتكون من نفس عدد الدولارات المئة الحقيقية، وحينما نؤكد أن الدولارات حقيقية، أي موجودة، فإننا بكل بساطة نطبق مفهوم الدولارات على العالم، لذا حينما نقول أن (س) موجودة، ليس مثل قولنا إنه بالإضافة إلى صفاتها الأخرى، فإنها تنعم بصفة الوجود، لكن هو أن نقول أنه توجد (س) في العالم الواقعي الحقيقي.

وبالضرورة، أوضح نفس هذه النقطة حديث الفيلسوف برتراند رسل (Bertrand Russell) في تحليله لكلمة "موجود –Exists"، وقد أوضح إنه

بالرغم من أن بالرغم من أن "موجود –Exists" هي ناحية نحوية جبر، إلا إنها منطقياً تؤدي وظيفة أخرى، يمكن إيرادها في الترجمات التالية: "البقر موجود" تعني "توجد (سينات) بمعنى أن (س) هي بقرة، يعتبر صحيحاً. وهذا التفسير يوضح بجلاء أنه لنقول أن الأبقار موجودة، ليس إلصاقاً لصفة معينة (إلى الوجود) للأبقار، لكن لتأكيد أن هنالك أشياء في العالم ينطبق عليها الوصف المختصر في كلمة بقرة، وبالمثل "فإن الحيوان الخرافي المسمى ثور الوحشي (Unicorns) لا وجود له "هي تساوي" لا توجد (سينات) بمعنى أن (س) هي هذا الحيوان الخرافي. وهذه الطريقة لتفسير أو تأويل المقولات الوجودية السالبة – أي المقولات التي تنكر أن نوعاً خاصاً من الأشياء موجود – تتفادى اللغز القديم عن مركز "شيء ما" يمكن أن نؤكد عنه إنه غير موجود.

وبما إننا يمكننا أن نتحدث عن هذا الحيوان الخرافي، مثلاً، من السهل أن نفكر بأن هذا الحيوان بمعنى ما، يكون أو يعيش أو ربما يسكن مجالاً وهمياً لعدم الوجود أو محتمل الوجود، ويوضح تحليل رسل (Russell) توضح أن " الحيوان الخرافي إياه لا وجود له" ليست مقولة عن الحيوان الخرافي، لكن عن مفهوم أو وصف "الحيوان الخرافي" وهي تأكيد أن هذا المفهوم ليست له دلائل.

وتحميل كل ذلك على البرهان العقلي المجرد هو كما يلي: إذا كان الوجود، كما افترض أنسلم وديكارتDescarte هو حال أو إثبات يمكن إشتماله في تعريف يكون كحال مرغوب، يجب إشماله في تعريف الله، فإن البرهان العقلي المجرد ساري المفعول، وسيكون من تناقض الذات أن نقول أن الكائن الأكثر كمالاً ويمكن تصوره يفتقد حالة الوجود. لكن إذا كان الوجود، يبدو نحوياً في دور الإثبات (أو الخبر)، له الوظيفة المنطقية المختلفة تماماً والتي تؤكد أن الوصف ينطبق على شيء في الواقع، إذن

فإن البرهان العقلي المجرد سيفشل باعتباره كدليل على وجود الله، ذلك لأنه إذا لم يكن الوجود مثبتاً (خبراً) فإنه لا يمكن أن يعرف إثباتاً لله، ومسألة ما إذا كان أي شيء في الواقع يقابل مفهوم الكائن الأكثر كمالاً ويمكن تصوره يبقى فاتحاً للتحقق منه. إن تعريفاً واحد لله يصف مفهوماً واحداً له، لكنه لا يدلل على الوجود الحقيقي لأي كائن كهذا[١٥].

ويجب إضافة أن بعض علماء اللاهوت، وعلى الأخص كارل (Karl Barth) يرون برهان أنسلم Anselm Alkintrben ليس كمحاولة للتدليل على وجود الله، لكن ككشف لأهمية إيحاء الله لنفسه كواحد ويجب على المؤمنين أن يمتنعوا عن التفكير في إنه أي شيء أقل من أعلى حقيقة يمكن تصورها.

وبناءاً على هذه النظرة، فإن برهان أنسلم لا يسعى لتحويل الملحد (أو هدايته) لكن بدلاً عن ذلك يسعى إلى أن يهدي المسيحي المؤمن قبلاً إلى فهم أعمق لموضوعه. لقد سلب البرهان العقلي المجرد عقول الفلاسفة لقرن من الزمان.

الدليل الثاني:

وهو يشبه الدليل الأول في مضمونه ومؤداه: أن من يعرف شيئاً أكمل من ذاته لا يمكن أن يكون خالق وجوده، وما دامت هذه المعرفة لا يمكن أن تكون صادرة من ذاته، فيجب أن تكون صادرة من موجود له الكمال اللانهائي.

وتفصيل القول في هذا الدليل: أننا ونحن حاصلون على فكرة الكمال، فلو كنا خالقين أنفسنا لمنحناها أسمى ما تقتضيه هذه الفكرة من كمال الوجود من حيث أن إرادتنا تتجه إلى الخير دائماً: (فلو كنت قد أوجدت نفسي لأردت لها كمال الوجود، ولكني ناقص فذلك دليل على أني لست موجد هذه الفكرة في نفسي وبالتالي لست خالق نفسي[١٦]، فلابد إذن

من أن تكون هذه الفكرة وهي – فكرة الكمال المطلق التي أجدها في نفسي – صادرة عن موجود حقيقي له صفة في الكمال الأسمى، وهو "الله" ومن ناحية أخرى لا يمكن القول بأني ما دمت موجوداً في هذه اللحظة بالذات فإني سأستمر في الوجود في اللحظات التالية من الزمان، وذلك أمر غير صحيح إذ لابد من أن ثمة موجوداً أبدياً يحفظ وجودي خلال فترات الزمان، فأجزاء الزمان ينفصل بعضها عن البعض الآخر بحيث لا يرتبط الزمان الحاضر بالزمان الذي سبقه، وإذن فلكي يدوم الموجود ويستمر في كل آن، فإنه يحتاج إلى نفس الفعل الضروري الذي تم خلقه بواسطته، أي أن فعل الخلق يتجدد خلال أنات الزمان المختلفة، "فأنا لكي أدوم خلال الزمان يجب أن أخلق خلقاً جديداً في كل آن، ولما كانت هذه القدرة التي تحفظني في الوجود غير موجودة لدي – لأني لو كنت حاصلاً عليها لعلمت ذلك يقيناً – وإذن فلست أنا خالق نفسي وليس والدي كذلك، إذ إننا سنتسلسل في مثل هذه الأسباب القريبة وسنصل في النهاية إلى علة الوجود الأولى وهي "الله" علة وجودي وحظي في الوجود أي استمراري في الوجود(١٧).

وهذا الدليل يشير إلى نظرية معروفة في الخلق المتجدد خلال الزمان وهي نظرية أشار إليها الأشاعرة واستغلوها في التدليل على أن العلية الإلهية قد وسعت كل شيء، بل جعلوا من هذه العلة الأثر المباشر في خلق جزيئات الوجود وحتى في تفصيلات الفعل الإنساني، فقسموا الزمان إلى لحظات أو أنات وكذلك فعلوا في الملاء والخلاء فقسمت إلى ذرات، فقالوا بانقسامها إلى ذرات.

فإذا كان الزمان ينقسم إلى أنات فما الذي يربط بين هذه الأنات بالنسبة لوجود أي موجود في الزمان، أي بالنسبة لاستمرار أي موجود في الماضي والحاضر والمستقبل، يقول الأشاعرة: إن الله هو علة هذا الوجود

في الماضي ثم هو الذي يخلقه في الآن الحاضر وسيخلقه في الآن المستقبل حينما يمضي الحاضر ويقبل المستقبل فالله يخلق خلقاً جديداً في الحاضر وفي المستقبل، أي أن هناك خلقاً كاملاً جديداً في كل لحظة زمنية، هذا الوجود الضخم العظيم يخلقه الله كله في كل آن زماني خلقاً جديداً.

وليس هناك شك في أن هناك أوجهاً للشبه بين الموقف الديكارتي بصدد الخلق المتجدد المستمر وموقف الأشاعرة وسيكون على مالبرانش أن يوجه هذا الموقف الديكارتي لكي يلتقي مع أبعاد الموقف الأشعري القديم(١٨).

الدليل الثالث:

هو الدليل الأنطولوجي المشهور وهو دليل القديس أنسلم مع شيء من التعديل، أو بمعنى آخر هو نفس الدليل ولكن وضع بصيغة جديدة، يعرض ديكارت Descarte هذا الدليل قائلاً، "إن فكرة موجود لا متناه مطلق الكمال تتضمن منطقياً وجود هذا الموجود"(١٩)، أي أن فكرة الكامل تتضمن وجوده بالضرورة. فوجود الله يلزم من ذات فكرتنا عن أي من مجرد تعريفه، ذلك لأن الكائن الذي لا يوجد، لا يمكن أن يكون لا متناهياً وكاملاً لأنه – وهو لا موجود – يفقد أهم صفة جوهرية من صفات اللاتناهي والكمال وهي (الوجود).

ويرى ديكارتDescarte أن الوجود متضمن في فكرتنا عن الله تماماً كما يتضمن تعريفاً للمثلث أن مجموع زواياه تساوي قائمتين، أي إننا كما نستطيع أن نستخرج من تعريف هذه الخاصية، وهي أن مجموع زواياه تساوي قائمتين، فإننا كذلك نستطيع أن نستخرج من تعريف فكرة الله أنه موجود(٢٠).

الخاتمة:

تلك هي الأدلة الثلاثة على وجود الله عند ديكارتDescarte، وقد وجهت إليها انتقادات كثيرة، منها: أن اللامتناهي والوجود المطلق الكمال هما مجرد فكرتين تعبران عن السلب لا عن الإيجاب، أي أنهما تشيران إلى سلب الحدود التي يتخطاها عقلنا في معرفته، أو بمعنى تلك الحدود التي تقف عندها قدرة إدراكنا الإنسانية وتعجز عن تخطيها لقصور عقلنا، أي أننا لا ندرك معنى اللامتناهي مثلاً إلا على أنه سلب لحدود المتناهي، وأنه تصور فارغ من أي محتوى، ما دمنا لا نستطيع أن نتجاوز معرفتنا الإنسانية وحدودها، وكذلك الحال فيما يتعلق بفكرة الكمال المطلق، فلا يمكن إذن في نظر بعض المنتقدين أن نثبت وجود الله عن هذا الطريق، بل يجب أن يتم إثبات وجود الله عن طريق الدراسة النقدية للتجربة الدينية أو عن طريق التفسير العلمي أو الفلسفي للعالم الخارجي. وسيكون على كانتCant أن يثبت أن هذه الأدلة جميعاً قاصرة عن إثبات وجود الله، ذلك لأن الذهن الإنساني لا يستطيع البرهنة نظرياً على وجود الله.

الحواشي:

١. المدخل إلى الفلسفة ارفلوكوليه، ترجمة أبو العلاء عفيفي، الإسكندرية، ١٩٤٢م، ص٢٣٥.
٢. أرفلوكوليه، المدخل إلى الفلسفة، مرجع سابق، ص٢٤٢.
٣. عباس محمود العقاد، الله، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة، ١٩٧٦م، ص٢٠٧.
٤. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الفصل الثالث، دار القلم، بيروت – لبنان، ص٥٨.
٥. المرجع السابق، ص٥٩.

٦. د. محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الفلسفة الحديثة، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، ١٩٩١م، ص٥٧.
٧. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الفصل الثالث، دار القلم، بيروت – لبنان، ص٦٠.
٨. نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.
٩. المرجع السابق، ص٥٩.
١٠. عثمان أمين، التأملات، ت، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م، ص٤٦.
١١. محمد أبو ريان تاريخ الفكر الفلسفي في الفلسفة الحديثة، الجزء الخامس، ص٥٨.
١٢. محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الفلسفة الحديثة، الجزء الخامس، ص٧٨.
13. Philosophy of religion-John Hick – copy right 1963 – London Cambridge University. P.P. 18FF.
14. Philosophy of religion – John Hick – P.P. 19.
15. Philosophy of religion – John Hick – P.P. 19.
١٦. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص٧٥.
١٧. محمد أبو ريان تاريخ الفكر الفلسفي في الفلسفة الحديثة، الجزء الخامس، ص٥٨.
١٨. المرجع السابق، ص٨٠.
١٩. عثمان أمين، التأملات، التأمل الثالث، مرجع سابق، ص١٢٤ وما بعدها.
٢٠. د. محمد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص٨١.

المصادر والمراجع:

١. أبو العلاء عفيفي، المدخل إلى الفلسفة ارفلوكوليه، ترجمة، الإسكندرية، ١٩٤٢م.

٢. عباس محمود العقاد، الله، دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة، ١٩٧٦م.

٣. محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الفلسفة الحديثة، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

٤. عثمان أمين، التأملات، ت، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م.

٥. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الفصل الثالث، دار القلم، بيروت – لبنان.

6. Philosophy of religion-John Hick – copy right 1963 – London Cambridge University. P.P. 18FF.

7. Philosophy of religion – John Hick – P.P. 19.

8. Philosophy of religion – John Hick – P.P. 19.